

Drug damage on the mind from the light of the Quranic perspective

Dr. Nashwan Abdo Khaled¹

ABSTRACT

This research aims at exposing the side effects and harm of drugs on human health in general and human mind in particular. The research is based on the objectives of the Quran forbidding this issue in order to reveal its clandestine and objectives which has emerged as an Islamic approach with a vast experience and as role model in changing human being.

On the other hand, the research contributes to the clarification of the relationship and the Objective of the prohibition of drugs, and honouring of the mind, in discussing about the mind and its importance, and the purposes of the Quran aiming at preserve it, and the effects and damages that it causes while consuming drugs.

This research has used an inductive approach to collect the evidences from the Quran and other proofs related to the subject of the research, then the analytical method is used for the analysis of these texts, evidences and statements, in order to derive the wisdoms and Objectives behind it.

The research has come up with many findings, which include: The objectives of the Quran which represents the fundamentals of Islam and the foundations of its creed and Sharia, and therefore contain elements of stability, and harmony in empowering the Islamic thought in various aspects, including the fact that the size of the disastrous effects of drug abuse evident in the proliferation of social ills lethal in the community like embezzlement of money, and damage caused to the health, social and effects psychological. Therefore, this leads us to say that the wisdom of the Quran and objectives of the prohibition are extremely clear. The principle of the pros and cons seem evident when raised on the issue of the prohibition of alcohol, which confirms our keen Quranic approach aimed at achieving happiness and success for every human being.

Lecturer department of Tilawah Al-Quran, International Islamic University Malaysia, Email: ¹ nashwan@iiu.edu.my

أضرار المخدرات على العقل في ضوء المقاصد القرآنية

ملخص البحث

يهدف هذا البحث إلى بيان أضرار المخدرات على الصحة الإنسانية عموماً، وعقل الإنسان على وجه الخصوص، ويعتمد البحث في ذلك على المقاصد القرآنية التي جلت هذا القضية، وكشفت أسرارها وغاياتها، والتي برز فيها المنهج الإسلامي بتجربته الرائدة كمثال يحتذى به في عملية التغيير الإنساني.

ومن ناحية أخرى فإن البحث يسهم في إيضاح العلاقة والمقصد بين تحريم المخدرات، وتكريم العقل، وذلك بالحديث حول العقل وأهميته، ومقاصد القرآن في الأمر بالحفاظ عليه، والأضرار التي تؤثر فيه نتيجة لتعاطي المخدرات، ثم الدور المناط به في ضوء المقاصد القرآنية.

وقد استخدم البحث المنهج الاستقرائي لجمع النصوص القرآنية والشواهد الأخرى والأقوال المقاصدية المتعلقة بموضوع البحث، ثم المنهج التحليلي لتحليل تلك النصوص والشواهد والأقوال؛ لاستنباط المقاصد والحكم والغايات.

وقد خلص البحث إلى العديد من النتائج والتي منها: إن مقاصد القرآن الكريم تمثل ثوابت الإسلام وأسس العقيدة والتشريعة، ولذا فإنها تحوي عناصر الثبات والوثام والانسجام لحركة الفكر الإسلامي في مختلف الجوانب، ومنها أن حجم الآثار الكارثية لتعاطي المخدرات المتمثلة في انتشار أمراض اجتماعية فتّاقة في المجتمع الإنساني كالتبذير في الأموال، والأضرار الصحية والنفسية والاجتماعية، يقودنا إلى القول بأن حكمة القرآن ومقاصده من التحريم واضحة وضوح الشمس في رابعة النهار، وأن قاعدة المصالح والمفاسد تبدو واضحة جلية عند إسقاطها على قضية تحريم الخمر مما يؤكد لنا حرص المنهج القرآن على تحقيق السعادة والفلاح للإنسان من وراء ذلك.

مقدمة:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحابه أجمعين، أما بعد:

فإن الناظر فيما أودع الله من أسرار في كتابه العظيم يجد أن القرآن الكريم يحمل في طياته مقاصد عظيمة²، ومرامي كبيرة، غايتها جلب المصالح للإنسانية وتكثيرها، ودفع المفسد عنها وتقليلها، وهذا ما أوضحه الإمام العز بن عبد السلام³. رحمه الله. حيث قال: "ومعظم مقاصد القرآن الأمر باكتساب المصالح وأسبابها، والزجر عن اكتساب المفسد وأسبابها"⁴، وعليه فإن المقاصد التي جاء بها القرآن الكريم قد رسمت خطوطاً واضحة هدفها إسعاد الإنسان، والحفاظ على مكوناته العقلية والبدنية، وتمكينه من القيام بالدور الفاعل الذي يضمن له حياة مستقرة في شتى الجوانب، حفاظاً على مصالحه ودرءاً للمفسد التي قد تحقق به، يقول ابن عاشور: "المقصد الأعظم من الشريعة هو جلب الصلاح ودرء الفساد، وذلك يحصل بإصلاح حال الإنسان ودفع فساد"⁵.

كل ذلك من أجل الحفاظ على الإنسان وخدمته، وجعله كائناً كريماً شريفاً يقوم بواجب الاستخلاف على أكمل الوجوه في حدود هذه المقاصد، وطبقاً لهذه المرامي.

2 للعلماء في تعريف المقاصد عدة مذاهب سأذكر منها تعريف الإمام ابن عاشور وعلال الفاسي كونهما أبرز من عرفوا المقاصد، حيث قال الإمام ابن عاشور في كتابه مقاصد الشريعة: "مقاصد التشريع العامة: هي المعاني والحكم الملحوظة للشارع في جميع أحوال التشريع أو معظمها، بحيث لا تختص ملاحظتها بالكون في نوع خاص من أحكام الشريعة، (انظر: محمد الطاهر ابن عاشور، مقاصد الشريعة الإسلامية، تحقيق: محمد الطاهر الميساوي (عمّان: دار النفائس للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، 1421هـ/2001م)، ص 251. ويعرفها علال الفاسي في كتابه مقاصد الشريعة ومكارمها فيقول: "المراد بمقاصد الشريعة: الغاية منها، والأسرار التي وضعها الشارع عند كل حكم من أحكامها"، (انظر: علال الفاسي، مقاصد الشريعة ومكارمها (الدار البيضاء: مكتبة الوحدة العربية، د.ط، د.ت)، ص 3.

³ من أبرز كتبه في المقاصد: قواعد الأحكام في مصالح الأنام، والفوائد في اختصار المقاصد، والمصالح والمفاسد، والشجرة.

⁴ أبو محمد عز الدين عبد العزيز ابن عبد السلام، قواعد الأحكام في مصالح الأنام، تحقيق: محمود بن التلاميذ الشنقيطي (بيروت: دار المعارف، الطبعة الأولى، د.ت)، ج 1، ص 7.

5 ابن عاشور، مقاصد الشريعة الإسلامية، مرجع سابق، ص 276.

ولما كان الإنسان هو المقصود بإنزال الكتب وإرسال الرسل، فقد حرص القرآن على بيان السبل التي بها تكون النجاة، وبالمقابل كشف لنا طرق الخسارة والخسران، ضمن منظومة متكاملة من المقاصد القرآنية تؤخذ من التفسير المقاصدي بمفهومه الشامل، والذي يمكن القول بأنه: فهم القرآن وتوسيع دلالاته اللغوية، واختيار القول التفسيري المناسب بناءً على المقاصد التي نزل القرآن لأجلها، مع عدم إغفال قواعد التفسير الأخرى، وهي أسباب النزول والمأثور والسياق⁶.

ومن جملة المقاصد التي جاء بها القرآن الكريم الحفاظ على العقل باعتباره الأداة التي يتميز بها الإنسان عن غيره من الكائنات، ولهذا فقد حرم الخمر لأنها تعطل فاعلية هذا العقل، وتمنعه من التدبر والتفكير والتفهم، لذلك جاءت الآيات القرآنية التي تكرم الإنسان من خلال عقله، فقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجاثية:13]. ومن خلال أمره بالتدبر: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَفْفَاهَا﴾ [محمد:24].

وأمره بالنظر والتأمل: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَلُهَا﴾ [محمد:10]، ومن نصه على العقل بقوله: ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام:151]، وقوله: ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ [يس:68].

ولمَّا وصَّى القرآن بالعقل حرَّم كل شيء يغويه ويصرفه إلى غير الوجهة التي خلق من أجلها فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة:90]. ومن ذلك المخدرات والمسكرات بكافة أشكالها، وصورها.

والقرآن الكريم بما حوى من المقاصد العظيمة، والمعاني الجليلة، حري بأن يعطى حقه من الاهتمام والتدبر، وجديرٌ بأن يحظى بالتفكير في مقاصده ومدلولاته، يقول ابن عاشور: "إن معاني القرآن ومقاصده ذات أفانين كثيرة، بعيدة المدى، مترامية الأطراف، موزعة على آياته، فالأحكام

6 من المتميزين بهذا النوع من التفسير: الإمام الطاهر محمد بن عاشور في تفسيره "التحرير والتنوير"، والإمام رشيد رضا في تفسيره "المنار"، والشهيد سيد قطب في تفسيره "في ظلال القرآن".

مبينة في آيات الأحكام، والآداب في آياتها، والقصص في مواقعها، وربما اشتملت الآية الواحدة على فنين من ذلك أو أكثر⁷.

لقد جاءت نصوص القرآن متضافرة في الأمر بالحفاظ على العقل، والعمل على توجيهه وتوظيفه في مناحي العلم والبناء والتشييد والابتكار، والإبداع الفكري والعلمي، وفي سائر مجالات العطاء الإنساني، وفق دائرة الوحي المشتمل على نصوص الكتاب الكريم ونصوص السنة النبوية المطهرة التي جاءت لتوجه العقل نحو تلك الآفاق التي تضمن له عدم الشذوذ أو الخروج عن الجادة أو التيه في طرق ليس لها آخر.

وتكمن أهمية هذا البحث في أنه يأخذ منحىً مقاصدياً فالكثيرون تحدثوا عن المسكرات وآفاتهما بشكلٍ عام، والخمر وأضراره بشكلٍ خاص، وذلك من النواحي الطبية والفقهية والشرعية، وقليل من تناول الناحية التفسيرية، إلا أن معظم الدراسات - على حسب اطلاع الباحث - لم تربط ذلك بالمقاصد القرآنية، ولم توضح العلاقة بين تحريم القرآن للمسكرات وبين العقل باعتبارها مناط التكليف الذي أمر القرآن بتوظيفه التوظيف الأمثل والحفاظ عليه.

المبحث الأول: مكانة العقل في ضوء مقاصد القرآن الكريم

لَقَدْ أُولَى القرآن الكريم العقل الأهمية البالغة، وذكره في مواطن متعددة على سبيل التشريف والتكريم، وبالمقابل حرم كل ما يغويه، أو يساهم في تعطيله عن وظائفه التي حددتها الآيات القرآنية، ويتطلبها مقام التكليف.

ولمَّا كان العقل هو مناط التكليف، إذ لا تكليف بدون عقل⁸، أمر المولى الكريم في كتابه الكريم بإعمال العقل، وعدم تقييده في النظر والتفكير، والاستنتاج والتدبر، وإيجاد الفروق بين

⁷ محمد الطاهر ابن عاشور، التحرير والتنوير (تونس: دار سحنون للنشر والتوزيع، د.ط، 1997م)، ج1، ص8.

⁸ وهذا مشتق من القاعدة التي ترفع التكليف عن من لم تكتمل أهليته في الفكر والتعقل، وفي الحديث الصحيح الذي رواه أبو داود في سننه عن علي رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " رفع القلم عن ثلاثة عن النائم حتى يستيقظ وعن

الأشياء، بل إن الأمر بإعمال العقل يشمل كل مناحي المعرفة الإنسانية العلمية منها والنظرية، وأمر القرآن هذا يهدف إلى صون العقل من التبعية والخرافية، وهدايته إلى الدين الحق، ومنهجه القويم، وما عاقبة تلك التكاليف الإلهية، وكيف يصل المكلف إلى الراحة والسعادة المنشودتين.

من هنا نجد دلالات القرآن وإشاراته، واضحة بالدعوة إلى إعمال العقل، وتسخيره في خدمة الأهداف والغايات التي وجد من أجلها الإنسان وقامت عليها الحياة، وعليها يسير نظام الكون المتناسق الدقيق الدال على عظمة خالقه، وبديع صنعه سبحانه، وتظهر أهمية العقل من خلال هذا الموضوع، وكيف أولى القرآن أمر إعمال العقل هذه الأهمية، لتبدو هذه المعاني جميعاً على قدر من الحيوية والقوة والتأثير.

يقول ابن حبنكة الميداني: "ولذلك اهتمت شريعة الله بشأن العقل والتفكر، الموصل إلى الفهم الصحيح اهتماماً عظيماً، وتواردت نصوص الكتاب والسنة على تمجيدهما والحث عليهما..."⁹.

لقد كان العقل ميزة بني الإنسان، وهو اللطيفة الربانية التي أودعها الله الإنسان ليرى بها حقيقة الأشياء، وهو مناط التفضيل وسر التخصيص¹⁰، وقد قيل لابن المبارك: "ما خير ما أعطي الرجل؟ قال: غريزة عقل. قيل: فإن لم يكن قال: أدب حسن. قيل: فإن لم يكن قال: أخ صالح يستشير. قيل: فإن لم يكن قال: صمت طويل قيل: فإن لم يكن قال: موت عاجل"¹¹.

وبالنظر إلى آيات القرآن ودلالاته يجد المتأمل الدعوة إلى إعمال العقل في المجالات المختلفة: في مجال النظر والتأمل والتفكر والاعتبار، تتنوع فيها الأساليب بين استفهام، واستنباط، وحوار

الصبي حتى يحتلم وعن المجنون حتى يعقل " (انظر: أبو داود سليمان السجستاني، سنن أبي داود، بيروت: دار الكتاب العربي، د.ط، د.ت، باب في المجنون يسرق أو يصيب حداً، حديث رقم: 4405، ج4، ص245).

⁹ عبد الرحمن بن حبنكة الميداني، ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال والمناظرة (دمشق: دار القلم، الطبعة الرابعة، 1414هـ/1993م)، ص11.

¹⁰ انظر: أحمد علي طه ريان، المسكرات آثارها وعلاجها في الشريعة الإسلامية، 1984م، القاهرة: دار الاعتصام، ص5.

¹¹ محمد بن حبان البستي أبو حاتم، روضة الفضلاء ونزهة الفضلاء، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد (بيروت: دار الكتب العلمية، د.ط، 1397هـ/1977م)، ج1، ص17.

ونقاش، وإثبات للحقائق وتوظيفها، وإخبار عن القصص للتفكر والتدبر والاعتبار، والدعوة إلى النظر في الآيات المعنوية والحسية ومدى نفعها وأثرها في حياة الكائن البشري، ولعل أمر القرآن في ذلك يتجلى في ما يأتي :

أولاً: دعوة القرآن لإعمال العقل في الآيات الكونية

إن الآيات الكونية مجال كبير من مجالات إعمال العقل بالتفكر والتدبر فيما أودعه الله من أسرار في هذا الكون البديع المتقن، ولهذا نجد دعوة القرآن الواضحة الصريحة في ذلك حيث يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران:190]، وهذا الموضع على وجه الإجمال، وفي موضع آخر يفصل الله تعالى في ذكر الآيات التي هي مجال للتأمل حيث يقول تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَع النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:164]، قال البغوي في تفسيره: "﴿لآيَاتٍ لأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران:190] ذوي العقول"¹². ويذكر الشهيد سيد قطب كلاماً جميلاً حول هذه الآية حيث يقول: "إن هذا الكون بذاته كتاب مفتوح، يحمل بذاته دلائل الإيمان وآياته؛ ويشي وراءه من يد تدبره بحكمة؛ ويوحى بأن وراء هذه الحياة الدنيا آخرة وحساباً وجزاء، وإنما يدرك هذه الدلائل ويقرأ هذه الآيات ويرى هذه الحكمة، ويسمع هذه الإحياءات أولو الألباب من الناس"¹³.

ومن الآيات الدالة على أن الآيات الكونية مجال لعمل عقل الإنسان قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْجِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ

¹² أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، معالم التنزيل، تحقيق: محمد عبد الله النمر - عثمان جمعة ضميرية - سليمان مسلم الحرش (دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الرابعة، 1417هـ / 1997م)، ج2، ص152.

¹³ سيد قطب، في ظلال القرآن (القاهرة: دار الشروق، الطبعة العاشرة، د.ت)، ج2، ص27.

يَعْقِلُونَ ﴿ [الروم:24]، وقوله تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِضَ لُّبُغُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد:4]، وقوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِ إِيَّانَا فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [النحل:12].

وغيرها من الآيات الدالة على أن الكون وما فيه من الآيات العظيمة دعا القرآن لإعمال العقل فيها والتي تمثل خصائص التصور الإسلامي عن العقل وعلاقته بالفطرة والكون، يقول الشهيد سيد قطب: " وهذه الحقيقة تمثل أحد مقومات التصور الإسلامي عن هذا الكون والصلة الوثيقة بينه وبين فطرة الإنسان والتفاهم الداخلي الوثيق بين فطرة الكون وفطرة الإنسان؛ ودلالة هذا الكون بذاته على خالقه من جهة؛ وعلى الناموس الذي يصرفه وما يصاحبه من غاية وحكمة و قصد من جهة أخرى" ¹⁴.

ثانياً: الدعوة لإعمال العقل في الجوانب المعنوية:

ولم تقتصر الدعوة في القرآن لإعمال العقل على الجوانب المادية فقط، بل تجاوزت إلى الجوانب المعنوية، حتى يشعر الإعمال بمدى التكريم والتشريف الذي حظي به من خلال آيات الله تعالى المبثوثة في نفسه وكيانه، ونجد ذلك واضحاً جلياً في آيات الزواج والعلاقة بين الزوجين التي اعتبرها القرآن آية من آيات الله، حيث يقول تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم:21]. إن هذه الآية العظيمة لو تفكر العقل فيها لاهتدى إلى عظمة الله وقدرته، قال البغوي: " ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في عظمة الله وقدرته" ¹⁵.

¹⁴ المرجع السابق، ج2، ص27.

¹⁵ البغوي، معالم التنزيل، مرجع سابق، ج6، ص266.

ومن الآيات الدالة على إعمال العقل في الجوانب المعنوية للإنسان ما يحدث للإنسان أثناء منامه، يقول تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تُمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الزمر:42]، فنوم الإنسان هو الموتة الصغرى، والموت هو الموتة الكبرى¹⁶.

ومن الآيات الباعثة على التفكير وفسح المجال فيه هي المعنويات، وما ضربه الله تعالى من الأمثلة في القرآن الدالة على حكمة يريد بها سبحانه من الخلق ومنها قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبِ بِالْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس:24].

ثالثاً: الدعوة لإعمال العقل في الجوانب التنزيلية

كما أن الآيات الكونية المادية، والمعنوية الماثورة في النفوس والخلائق، تعد مجالاً لإعمال العقل بالتدبر فيها، فكَذَلِكَ الآيات التنزيلية تعد مجالاً آخر للتفكير والتدبر وميداناً لإعمال العقل، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة:219]¹⁷، ومن ذلك دعوة القرآن إلى التفكير في الآيات والدلائل التي تدل الخلق إلى الخير والهدى الذي أنزل الله من أجله الكتب، وأرسل من أجله الرسل، يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل:44].

¹⁶ انظر: القرضاوي، العقل والعلم في القرآن الكريم، ط1، 1422هـ/2001م، بيروت: مؤسسة الرسالة، ص34-35 بتصرف.

¹⁷ وقد اختلف المفسرون في معنى العفو، قال البغوي في تفسيره: "واختلفوا في معنى العفو، فقال قتادة وعطاء والسدي: هو ما فضل عن الحاجة، وكانت الصحابة يكتسبون المال ويمسكون قدر النفقة ويتصدقون بالفضل بحكم هذه الآية، ثم نسخ بآية الزكاة. وقال مجاهد: معناه: التصدق عن ظهر غنى حتى لا يبقى كالا على الناس" (انظر: البغوي، معالم التنزيل، مرجع سابق، ج1، ص253).

ومن الآيات التنزيلية ما ضربه الله لنا في قصة المنفق المرائي الذي احترقت جنته، يقول تعالى: ﴿فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة: 266]، قال الإمام البقاعي: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾: "أي ليكون حالكم حال من يرجى أن يحمل نفسه على الفكر، ومن يكون كذلك ينتفع بفكره"¹⁸.

وبالجملة دعوة القرآن إلى أخذ العبر والعظات من أمثال القرآن، فإنها ليست من باب التسليية والترويح فحسب، بل من أجل أخذ العبرة والعظة الهادفة إلى إقناع العقل بما فيه المصلحة والنفع، قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ لِنَاسٍ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: 21].

رابعاً: دعوة القرآن للتفكير الجاد مثنى وفردى

يقول القرضاوي: "من أروع الآيات التي حثت على التفكير قوله سبحانه وتعالى في سورة سبأ من القرآن المكي: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَ خِيَلٍ مُنْثَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ: 46]، ثم أورد العلة من وراء ذلك فقال: "هذه الخصلة الواحدة المطلوبة مكوّنة من خطوتين: أولى وثانية. الخطوة الأولى: أن يقوموا لله مثنى وفردى، والقومة تعني: النهوض والعزيمة. الخطوة الثانية: أن يتفكروا، أي يعملوا عقولهم ولا يجمدوها"¹⁹، ومنه يؤخذ أن التفكير مثنى مثنى أفضل، قال تعالى: ﴿ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [الملك: 4].

وفي هذا الأمر من الدلائل والحكم ما لا يمكن تجاوزه، فإن القومة لله تعالى ينبغي أن تكون خالصة لوجهه سبحانه، بعيدة عن كل المؤثرات الخارجية، والأفكار الدخيلة، والمشاعر والعواطف،

¹⁸ برهان الدين أبي الحسن البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، تحقيق: عبدالرزاق غالب المهدي (بيروت: دار الكتب العلمية، د.ط، 1415هـ/1995م)، ج1، ص521.

¹⁹ القرضاوي، العقل والعلم في القرآن الكريم، مرجع سابق، ص40-41.

والضغوطات، ومن ثم تأتي القومة للتفكير، مثنى وفردى²⁰، ليفكر كل واحد مع نفسه بمعزل عن تأثير الآخرين، وفي هذا تمام الحرية الفكرية²¹، وإطلاق العقل نحو التفكير البناء الموصل إلى الهدى والرشاد.

خامساً: الدعوة لإعمال العقل في التذكر

يُعَدُّ التذكر إحدى عمليات العقل العليا كما يقرر ذلك العلماء، يقول القرضاوي: "والفرق بين التفكير والتذكر: أن التفكير يعمل لتحصيل معرفة جديدة، والتذكر يعمل لجلب معرفة قديمة، ذهل عنها أو غشيتها الغفلة والنسيان"²²، وكما أن القرآن دعا إلى إعمال العقل في التفكير، وأكد على ذلك، فإنه دعا إلى التذكر وأكد على ذلك، ويتضح ذلك جلياً من خلال الآيات التي تحدثت عن التذكر، ومنها قوله تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات:55]، وذلك لأن القلوب تغفل، والإنسان بطبيعته ينسى، ومنها قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق:45]، وقوله تعالى: ﴿تَبَصَّرْ وَذَكِّرْ لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾ [ق:8]، وقوله تعالى في تثبيت فؤاد النبي صلى الله عليه وسلم: ﴿وَكَلَّا تَقْصُ عَلَيْنِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُنَبِّئُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود:120]. وقوله تعالى في التفريق بين أهل العلم وغيرهم: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر:9].

والكثير من الآيات التي دعت بصيغها وأساليبها المختلفة إلى إعمال العقل²³، وأثبتت له الدور في العمل والعطاء بوظائفه المختلفة.

²⁰ "بدأ بقوله مثنى دلالة على أن الحوار والأخذ والرد الثنائي هنا قد يكون أجدى، لأن المرء يسمع مع جلسيه وصديقه، ولا يأبى أن يسلم له إذا أفتعه، ولكنه قد يرفض الهزيمة إذا كان أمام الجمهور" (المرجع السابق، ص41).

²¹ سيتم الحديث عنها لاحقاً.

²² القرضاوي، العقل والعلم في القرآن الكريم، مرجع سابق، ص52.

²³ يرى الإمام البقاعي أن السبب في كثرة الأدلة وتضافرها هو اختلاف عقول الناس، فيقول: "وسبب تكثير الأدلة أن عقول الناس متفاوتة، فجعل سبحانه وتعالى العالم وهو الممكنات الموجودة وهي جملة ما سواه الدالة على وجوده وفعله بالاختيار على

المبحث الثاني: أضرار الخمر على العقل في ضوء المقاصد القرآنية

إن من جملة المقاصد التي جاء بها القرآن الكريم مقصد الحفاظ على العقل، ويتجلى ذلك في أمر القرآن بإعمال العقل في مناحي المعرفة المختلفة وبالمقابل تحريم كل ما يغوي العقل ويصرفه عن تلك الأعمال، وهذه الوظيفة التي خلق الله العقل لأجلها وشرف الإنسان بها، وذلك بتحريم الخمر وكل ما يمت لها بالصلة، ويشمل ذلك التحريم أنواع المخدرات والمسكرات.

ومن جملة ذلك أيضاً مراعاة المصالح والمفاسد، فكل ما يجلب النفع والخير للإنسان نجد القرآن الكريم قد أمر به، وكل ما يأتي بالضرر والشر له نجد القرآن قد حرمه، وأمر الإنسان بالابتعاد عنه.

وإن من جملة المحرمات التي حرمها القرآن مراعاة لمصالح الخلق، وجلب الخير لهم ودفع الشر عنهم: المسكرات والمخدرات، فهي آفة العقل، وتعاطياها يفقد البشر المكانة التي شرفهم الله بها، ويلحق الضرر بالأجهزة المختلفة في جسم الإنسان ككل، وفي العقل على وجه الخصوص.

ولهذا فإن من جملة الأضرار التي تلحقها المخدرات بالعقل سلب الإنسان القدرة على التفكير السليم، وتمييز النافع من الضار، والحق من الباطل، فهي تجعل الإنسان في حالة تخرجه عن البشرية، وتفقدته خاصية التعقل التي شرفه الله بها.

قسمين: قسم من شأنه أن يدرك بالحواس الظاهرة ويسمى في عرف أهل الشرع الشهادة والخلق والملك، وقسم لا يدرك بالحواس الظاهرة ويسمى الغيب والأمر والملكوت، والأول يدركه عامة الناس والثاني يدركه أولو الألباب الذين عقولهم خالصة عن الوهم والوساوس، فالله سبحانه وتعالى بكمال عنايته ورأفته ورحمته جعل العالم بقسميه محتوياً على جمل وتفصيل من وجوه متعددة وطرق متكررة تعجز القوى البشرية عن ضبطها يستدل بها على وحدانيته بعضها أوضح من بعض ليشترك الكل في المعرفة، فيحصل لكل بقدر ما هبى له، اللهم إلا أن يكون من طبع على قلبه، فذلك والعباد بالله سبحانه وتعالى هو الشقي " (البقاعي، نظم الدرر، مرجع سابق، ج1، ص298-299).

ولقد تحدث العلماء والباحثون عن أضرار الخمر والمخدرات، وأبانوها بشكل لا يبقى معه شك، ولا يتأتى معه ريب، سواء كانت تلك الأضرار أضراراً نفسية، أم اجتماعية، أم مالية اقتصادية، أم عقلية وفسيولوجية، ونسلط الضوء هنا على الأضرار التي تمس العقل بشكل مباشر حتى تتضح حجم الخطورة المترتبة على تعاطي الخمر والمخدرات، وكيف راعي القرآن تحقيق الخير والمصلحة في تحريمها.

إنَّ الجرعة الواحدة من الخمر أو الكمية البسيطة من المخدرات تحدث ارتفاعاً في ضغط الدم، ويتفجر معها شريان في المخ، ولها الكثير من التأثيرات على أجهزة الجسم المختلفة..²⁴، بالإضافة إلى أن تعاطي الخمر والمخدرات يسبب فقر الدم²⁵ ومما جاء في الدراسات الحديثة أن "المعهد الفرنسي لمكافحة السرطان يؤكد أن تناول الكحول وخاصة الخمر ينبغي أن يتوقف، وتؤكد وزارة الصحة الفرنسية أن كأساً واحدة من الخمر يومياً تزيد فرص احتمال الإصابة بالسرطان بنسبة 168%".

ويقول مدير معهد مكافحة السرطان "دومينيك مارانشي" إن شرب جرعات من الخمر مهما كانت قليلة يسبب أضراراً لا يمكن تصورها لصحة الإنسان، فلا يمكن لكمية من الخمر، مهما قلَّت، أن تفيد الإنسان في شيء²⁶.

أولاً: أضرار المخدرات على العقل عموماً

لقد أثبت الطب الحديث أن المخدرات لها أضرارٌ بالغة على العقل، وأن القليل منها مضر، وأن التداوي بها غير مجدي، وفي الحقيقة أن هذا ليس بجديد، فلقد كان الإسلام سباقاً في هذا المضمار، في إثبات أن القليل من الخمر حرام، ويظهر ذلك عندما رفض النبي صلى الله عليه وسلم . بعد

24 انظر: محمد حلمي أبو غزالة، يسألونك عن الخمر (عمَّان: دار الأرقم، الطبعة الأولى، 1983م)، ص23.

25 انظر: سعيد بن عبد الرحمن الأحري، حكمة تحريم الخمر في الإسلام (الرياض: مكتبة المعارف، الطبعة الأولى، 1405هـ/1985م)، ص88.

26 انظر موقع شبكة الإعجاز في القرآن والسنة، تاريخ تصفح الخبر 2010/3/24م.

<http://miracweb.net/index.php/2009-05-30-02-29-25/101-2009-06-23-01-54-45>

التحريم القاطع للخمر . كل المحاولات التي أرادت أن تسمح بتعاطي قليل من الخمر للتداوي أو للدفع، أو لأغراض أخرى، فلقد كان رد الإسلام على تلك الأمور واضحاً وحاسماً: عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما أسكر كثيره فقله حرام"²⁷، قال ابن مسعود رضي الله عنه: "إن الله لم يجعل شفاءكم فيما حرم عليكم"²⁸، وسأل طارق بن سويد عن الخمر فنهاه عنه فقال: إننا نتداوى بها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إنها ليست بدواء ولكنها داء"²⁹.

يقول مالك بدري: "وجاء الطب الحديث ليؤكد ما ذهب إليه نبي الإسلام في أن منافع الخمر العلاجية كلها موهومة، بل إنها تزيد الداء استفحالاً، فهي إذن داء وليست دواء"³⁰. ويتابع الحديث عن الأضرار الطبية على العقل فيبين أن من بين المشكلات الطبية لتعاطي الكحول: ذهان كورساكوف، التلف الدماغى، الخرف، الهذيان، والذهان أو الجنون الكحولى³¹.

ويرى أوبري لوس رئيس قسم الأمراض النفسية في جامعة لندن في أكبر وأشهر مرجع طبي بريطاني "مرجع برايس الطبي" *perice text book of medicine*: "إن الكحول هو السم الوحيد المرخص بتداوله على نطاق واسع في العالم كله، ويجده تحت يده كل من يريد أن يهرب من مشاكله، ولذا يتناوله بكثرة كل مضطربى الشخصية ويؤدي إلى اضطراب الشخصية ويمرضها"³²، وكثيراً ما يؤدي تسمم الخلايا العصبية إلى الجنون، وقد ثبت من الإحصائيات الرسمية أن 15% من

²⁷ أبو داود سليمان ابن الأشعث، سنن أبي داود، مرجع سابق، باب النهي عن السكر، حديث رقم: 3683، ج3، ص368، وقال الألباني: حديث حديث حسن صحيح.

²⁸ محمد بن إسماعيل البخاري، الجامع الصحيح المختصر، تحقيق: د. مصطفى ديب (بيروت: دار ابن كثير، الطبعة الثالثة، 1407هـ/1987م)، باب شرب الحلوى والعلس، حديث رقم: 5290، ج5، ص2129.

²⁹ محمد بن عيسى الترمذي، الجامع الصحيح سنن الترمذي، تحقيق: أحمد محمد شاكر آخرون (بيروت: دار إحياء التراث العربى، د.ط)، باب كراهية التداوي بالسكر، حديث رقم: 2046، ج4، ص387، قال الألباني: صحيح.

³⁰ مالك بدري، حكمة الإسلام في تحريم الخمر (المعهد العالمى للفكر الإسلامى، الطبعة الأولى، 1416هـ/1996م)، ص114.

³¹ انظر: المرجع السابق، ص115.

³² أحمد فتحي بجنسي، الخمر والمخدرات في الإسلام (آمون للطباعة والتجليد، د.ط، 1989م)، ص72.

المجانين الذين يعالجون في مستشفى الأمراض العقلية كان جنونهم ناشئاً من عادة تعاطي المسكرات³³.

ثانياً: أضرار المخدرات على الجهاز العصبي العقلي

يرى الباحثون في المجال العلمي أن الجهاز العصبي أول الأجهزة تعرضاً لتأثير الكحول وأكثرها، وإن أهم تأثير للكحول كما ينقل ذلك محمد علي البار هو: "تحذيره لخلايا المخ ولكن أهم خلايا المخ التي تصاب هي خلايا القشرة (Cortex) وهي الخلايا المتحكمة في الإرادة أو ما نعبر عنه بكلمة العقل"³⁴ ومن أهم الأمراض التي تصيب الجهاز العصبي الذي يعد العقل مركزاً له ما يأتي:

ضمور خلايا قشرة الدماغ (Cortical atrophy)

يقدر عدد الخلايا العصبية بنحو (20) ألف مليون خلية عصبية، ويتميز الكحول بقدرته على تجميع كريات الدم الحمراء والصفائح الدموية، والتصاقها؛ الأمر الذي يؤدي في النهاية إلى تكوين جلطة تسد الأوعية الدموية، فيقل تدفق الدم والأكسجين إلى خلايا المخ فتصاب بالضمور والموت، فيفقد معها المرء القدرة على تذكر الأحداث التي مرت به، بل يتعدى ذلك إلى فقد القدرة على الحكم السليم على الأمور³⁵.

وبهذه المضرة البسيطة التي قد تبدو ضخمة في أثرها تظهر مقاصد القرآن في أن الضرر الذي يتسبب فيه الخمر على العقل يجب اجتنابه، وأن القرآن لم يحرم شيء إلا لمقصد فيه مصلحة الناس، ودفع الضرر عنهم.

33 انظر: إسماعيل الخطيب، المسكرات بين الشرائع السماوية والقوانين الجنائية (القاهرة: مطبوعات الشعب، د.ط، 1406هـ/1986م)، ص39.

34 محمد علي البار، الخمر بين الطب والفقه (جدة: الدار السعودية للنشر والتوزيع، الطبعة السادسة، 1404هـ/1984م)، ص70.

35 انظر: شبيب بن علي الحاضري الخمر داء وليست بدواء، (مكة المكرمة: هيئة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، الطبعة الثانية، 1421هـ/2000م)، ص175.

السكتة الدماغية (الجلطة الدماغية أو الفالج stroke)

إن من أهم الأسباب المؤدية للإصابة بالسكتة الدماغية الإفراط في تعاطي الخمر، ويرجع المختصين ذلك إلى أسباب منها: دور الكحول في الإصابة بارتفاع ضغط الدم، ودور الكحول في التأثير على خاصية التخثر في الدم، ودور الكحول في الإصابة باضطرابات نظم القلب، ورفع نسبة دهنيات الدم³⁶.

وهذا الضرر الذي يخافه الكثير من البشر وهو الموت المفاجئ أو الإصابة بالجلطة الدماغية ألا تظهر فيه حكمة تحريم الخمر؟ وضرر الخمر البالغ على العقل؟.

ضمور خلايا المخيخ (Cerebella degeneration)

يقوم المخيخ كما أبدعه الخالق سبحانه وتعالى بوظيفة هامة في جسم الإنسان حيث إنه المسؤول عن تنسيق (Coordination) حركات الجسم كلها بالإضافة إلى اشتراكه في المحافظة على توازن الجسم، وإذا أصيبت خلاياه بالضمور بفعل الخمر، فإن الإنسان يفقد القدرة على الوقوف، لذا نجده يترنح أو ما يسمى ب(Unsteady gait) يميناً وشمالاً، ليس هذا فحسب بل تظهر عليه رعشة في يديه، كما أن مقلة العين يصيبها نصيب من هذه الأعراض فتصاب بالاهتزاز السريع، أما الكلام فيصير مبهماً نتيجة للتلعثم الواضح (Slurred speech)³⁷.

إن هذا الضرر الذي أثبتته الطب الحديث يؤكد لنا بجلاء حكمة القرآن البالغة في تحريم الخمر وأنواعه المختلفة، ومدى حرص الإسلام على العقل، وأهمية الحفاظ عليه.

التهاب السحايا (Meningitis)

³⁶ المرجع السابق، ص 177-179.

³⁷ الحاضري، الخمر داء وليست بدواء، مرجع سابق، ص 179-180. نقلاً عن:

Medicine international. 1985.1989; alcohol and disease. Medicine group (U.K) ltd.

السحايا هي الأغلفة التي جعلها الله تعالى من وسائل حماية الجهاز العصبي³⁸، وتتكون السحايا من ثلاثة أغلفة: الأم الحنون (pia matter)، والعنكبوتية (arachnoid)، والأم الجافة (Dura matter)، وقد وجد أنه تكثر الإصابة بالتهاب السحايا عند السكريين، وأعراض هذا المرض تتمثل في إصابة المريض بصداع وحرارة، مع تصلب في الرقبة يصعب تحريكها، وقد يدخل المريض في غيبوبة يفقد على إثرها الحياة، وقد يصاب بعاهات مستديمة كالشلل والصرع، واضطرابات في أملاح الجسم، وغير ذلك من الأمراض³⁹.

وهذا ما يؤكد لنا الحكمة البالغة في الحفاظ على الجنس البشري والحفاظ على أعضائه مهما صغرت، فلم يحرم الله شيء إلا ولذلك من الحكم والمقاصد ما لا يخفي لذي لبٍّ ونهى.

اعتلال الأعصاب الطرفية (peripheral neuropathy)

ويحدث بسبب التأثير السمي للكحول الذي يؤدي إلى تحلل في محاور الخلايا العصبية، وهذا بدوره يؤدي إلى فقد المدمن للإحساس بالحرارة، والألم في أطرافه، مع ضعف في المنعكسات العصبية (Reflexes)، ولا تسلم بعض أعضاء الجسم من تأثير الكحول، وخصوصاً العصب الثالث والسادس اللذان يغذيان عضلات العين⁴⁰.

بالإضافة إلى ذلك فإن الخمر تتسبب في الإصابة بالعديد من الأمراض الدماغية التي تصيب العقل كداء "فيرنيكية" الناتج عن النقص الذي تحدثه الخمور في فيتامين (ب)، وذهان "كورسكوف" والذي يظهر بعد إصابات المريض بداء "فيرنيكية" السابق، وأيضاً مرض اعتلال الأعصاب الطرفية وشلل ماء السبت، والغمش التبغي الكحولي، ونوبات اعتلال الدماغ الكبدي، وغيرها من الأمراض التي تقود المتأمل إلى الإيمان واليقين بأن الله سبحانه وتعالى لا يحرم شيء إلا لمقاصد سامية وغايات جليلة بها يتحقق حفظ النوع الإنساني والمحافظة على كرامته، واستقلالته من

³⁸ المرجع السابق، ص 181.

³⁹ jan. 1984.vol.68.، ethyl alcohol and disease، Medical clinics of north America

⁴⁰ المرجع السابق، ص 183.

الأهواء الضارة والشهوات المدمرة، وهذه من المقاصد العامة التي جاء القرآن لتحقيقها في واقع البشر⁴¹.

والعقل كما يتحدث عنه الدكتور محمد علي البار "إنما هو مجموعة الموانع الأخلاقية التي تتكون لدى الإنسان، فالطفل يتبول ويتغوط دونما أي مانع فإذا كبر قليلاً تكون لديه المانع بالتربية وهكذا فإنه لا يمارس الجنس كالحیوانات في قارعة الطريق إلا من ارتكس إلى مرحلة الحيوانية والبهيمية التي تتبول وتتغوط كذلك في قارعة الطريق.

بل إن الحيوانات يمكن تربيتها وتأديبها حتى تمنع من إلقاء القاذورات في الشوارع العامة أو الصالونات وغرف الاستقبال، ووظيفة الكحول هي إزاحة هذه الموانع، وليس للكحول تأثير تنبيهي قط للخلايا وإنما هو تأثير تخديري تثبيطي (Depressive action) على الجهاز العصبي⁴².

إنَّ ما سبق بيانه من الأضرار المترتبة على تعاطي الخمر تؤكد لنا بوضوح أن القرآن الكريم هو الجامع لمصالح الدنيا والدين، والحاوي لكليات العلوم، وأن تحريم القرآن للخمر فيه من المنافع ما لا يحصى عدده، ولا يدرك كنه أسرارهِ إلا من حباهم الله تعالى بحسن النظر ودقائق العلم، وأن القرآن الكريم قد كرم العقل بهذا التحريم للخمر، ورفع شأن أهل العقول بأمره بمجانبة الخمر، ولذلك مقاصد وأسرار نتناولها في المبحث القادم.

المبحث الثالث: مقصد تكريم العقل وحمايته في الشريعة.

ولما كان أمر القرآن لإعمال العقل، وتوظيفه بتلك الوظائف الهامة، فقد عظم القرآن أمر العقل من ناحية أخرى، من خلال تحريم كل ما يغويه ويصرفه عن الطريقة التي أوجده الله من أجلها، لأنه

⁴¹ للاستزادة عن تفاصيل تلك الأمراض والدراسات حولها ينظر: الخمر داء وليست بدواء، مرجع سابق، ص 171-185.

وانظر: mohammed ali albar، the problem of alcohol and its solution in islam، first edition، Saudi publishing and distributing house 1986.

⁴² البار، الخمر بين الطب والفقه، مرجع سابق، ص 71.

بصلاحه تستقيم وجهة المسلم نحو خالقه والمنعم عليه بدقائق النعم وعظمها ، وفي ذلك مصلحة وخير ونفع، وبفساده تفسد وجهة المسلم نحو معبوده وهاديه، وفي ذلك مفسدةٌ وشرٌ وضررٌ، وبالتأمل في مقاصد الشريعة، ونظرة الأصوليين⁴³ لمقصد حفظ العقل في الشريعة، نجد أن حماية العقل وحفظه في القرآن تكون بتحريم الخمر والمسكرات، قال المرداوي . رحمه الله .: "وأما حفظ العقل: فبتحريم المسكرات ونحوها قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ [المائدة:91]"⁴⁴ .

إنَّ من مقاصد الشريعة الضرورية مقصد حفظ العقل، والذي فسرهُ ابن عاشور بقوله: "ومعنى حفظ العقل حفظ عقول الناس من أن يدخل عليها خلل، لأن دخول الخلل على العقل مؤدِّ إلى فساد عظيم من عدم انضباط التصرف، فدخول الخلل على عقل الفرد مفضٍ إلى فساد جزئي، ودخوله على الجماعات وعموم الأمة أعظم..."⁴⁵.

وذلك لأن العقل يعتبر مناط المسؤولية، وبه ميز الله الإنسان عن غيره من المخلوقات، ليفهم واجبه ودوره في الاستخلاف، والقيام به على أتم الوجوه، وأحسن الأحوال، ولهذا التمييز وهذه الأهمية فقد شرع الله لنا من التشريعات والأحكام ما يبين مقصد الحفاظ على العقل في الشريعة، وحيويته واستمراره في العمل، وعدم تعطيله أو إلغائه، وأنه ضمن كليات⁴⁶ لا تقوم ذات الحياة إلا

⁴³ يرى الأصوليون أن حفظ العقل مقصداً من مقاصد الشريعة، جاء في الموافقات: " فالأصوليون يجعلون حفظ العقل مقصداً، ويستدلون على ذلك بتحريم المسكر والعقوبة الشرعية عليه، بينما يذكر الشيخ راشد أن حفظ العقل يتعلق به حق الإنسان في التعليم وحرية التفكير وحرية التعبير " (إبراهيم بن موسى الشاطبي، الموافقات في أصول الشريعة، تحقيق: أبو عبدة مشهور آل سلمان، دار عثمان بن عفان، الطبعة: 1417هـ/1997م، ج1، ص45).

⁴⁴ علاء الدين أبي الحسن المرداوي، التحرير شرح التحرير في أصول الفقه، تحقيق: عبد الرحمن الجبرين، عوض القرني، أحمد السراج (الرياض، مكتبة الرشد، د.ط، 1421هـ/2000م)، ج7، ص3381.

⁴⁵ ابن عاشور، مقاصد الشريعة الإسلامية، مرجع سابق، ص303-304.

⁴⁶ المقصود بذلك المقاصد والكليات الخمسة وهي: حفظ الدين، والنسل، والعقل، والمال، والعرض.

بها، ومن هذه التشريعات والأحكام الدالة على مقصد حماية العقل والحفاظ عليه في المنظور القرآني ما يأتي:

أولاً: تحريم القرآن للمسكرات: لقد حرم القرآن كل ما يعطل العقل، ويسلبه طاقة العمل والتفكير، ويقيدته عن الوظيفة الربانية في إدارة الذات والكون، والتعامل مع الأحداث والوقائع وفق التوجيهات القرآنية، والإرشادات النبوية، حرم الله الخمر ومشتقاتها لهذا المقصد ومن أجل هذه العلة قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة:90].

ثانياً: العقوبة المترتبة على شرب المسكرات: شرعت العقوبة الرادعة على تناول الخمر والمسكرات، وذلك للأضرار النفسية والاجتماعية والمالية على الفرد والمجتمع الناجمة عن التعاطي والإدمان للخمر وويلاته.

ثالثاً: تربية القرآن للعقل لقد ربي القرآن العقل على الحوار والدليل والحجة، والاستقلال في التفكير ونبت التقليد الذي لا يقوم على الحجة، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [المؤمنون:117]، وقال تعالى: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة:111].

رابعاً: دعوة القرآن إلى تنمية العقل وتطويره مادياً ومعنوياً أما مادياً فبما كفلت الشريعة من حقوق للبدن ومنه العقل بالنوم والراحة، وعدم المؤاخذة بالخطأ والنسيان، ومعنوياً بالتأكيد على أهمية طلب العلم، واعتباره أساس الإيمان، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر:28]، وقوله تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾ [طه:114]، ومن خلال دعوته للتعلم والقراءة، بأن جعل العلم حقاً مشروعاً لكل مسلم، بل أوجبه على بعض المسلمين، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة:122].

خامساً: رفع مكانة العقل وإعلاء شأن أهل العقول ويظهر هذا جلياً في آيات القرآن ومنها قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: 17-18]. وقوله تعالى: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة: 11].

سادساً: تحرير القرآن العقل من سلطان الخرافة والتقليد وذلك من خلال تحريم السحر والشعوذة، والأباطيل، واتخاذ القربان والرهبان أرباباً من دون الله، كما أن القرآن منع العقل من الخوض في المغيبات من غير علم أو هدى، وعدّ القرآن ذلك من الهدر والكبر والغرور، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [غافر: 56].

سابعاً: تدريب العقل على الاستدلال المثمر الصائب وذلك من مناحي عديدة في القرآن فمثلاً قوله تعالى في النهي عن القول بغير علم: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً﴾ [الإسراء: 36]، ومن خلال التثبت قبل الاعتقاد، قال تعالى: ﴿هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً﴾ [الكهف: 15]. ومن خلال أمر القرآن بالتدبر والتأمل في نواميس وسنن الكون⁴⁷ وغيرها من الآيات.

ثامناً: توجيه القرآن للطاقة العقلية لاستنباط الأحكام، وإدراك الأسرار والمقاصد وذلك من خلال أمره بتدبر كلامه وآياته، قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: 82]، وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾

⁴⁷ سبق بيان ذلك في المبحث السابق: (أمر القرآن بإعمال العقل).

[محمد:24]. "فالتدبر يقصد منه البحث عن الحقيقة، والمقرون بالإخلاص في الوصول إليها سوف يكشف لدوي الاستعداد منهم أن هذا القرآن حقُّ كله، وأنه منزل من عند الله عزَّ وجلَّ" ⁴⁸

تاسعاً: توجيه القرآن للعقل باستغلال الطاقات المادية واستجلاب الرزق الحسن، وعمارة الأرض: وذلك من خلال الآيات الدالة على استغلال الأرض في قيام الحضارة، والتطور والبناء، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك:15]، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [البقرة:168]. وغير ذلك من الآيات.

إن ما سبق من الإشارات القرآنية والتوجيهات الإلهية بالاهتمام بالعقل من خلال المشاهد والتوجيهات السالفة الذكر؛ لا يدع مجالاً للتشكيك في بيان هدايات القرآن حول مقصد الحفاظ على العقل، وما يترتب على ذلك الحفاظ من المصالح والمنافع، وأن أي اعتداء على العقل إنما يعني الاعتداء على ذات الإنسان وإنسانيته وكرامته ، وأن أي استخفاف بالعقل إنما يعني الاستخفاف بالجنس البشري، وهل البشر مكرمون إلا بهذا العقل؟ وهذه حقيقة لا بد من إدراكها، وتعليمها للناشئة، وتربية الجيل على احترام العقل ووظائفه العظيمة المرسومة.

المبحث الرابع: المقاصد القرآنية من تحريم الخمر

إن القرآن الكريم بما حوى في طياته من المقاصد العظيمة، والغايات الجليلة، يدلنا دلالة واضحة على تكريم الله تعالى لنا وتشريفه لجنس الإنسان، ورفعته عن الغائية، والبهيمية، وجعل الإنسان كائناً شريفاً يقوم بالواجب الذي خلق من أجله، والهدف الذي وجد لتحقيقه، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ

⁴⁸ عبد الرحمن الميداني، قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عزَّ وجلَّ، مرجع سابق، ص11.

وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾
[الإسراء: 70].

وإن كل شيء يروم إلى الوقوف ضد هذا المقصد العظيم، ومن شأنه أن يذل الإنسان ويغويه، ويصرفه عن هذا التكريم تحت أي مسمى أو غرض، فإن القرآن قد حرمه أو نهى عنه حفاظاً على هذا الإنسان وتكريماً له وتشريفاً، وإن كان ذلك حتى في عضوٍ من أعضائه، أو ذرة من ذرات جسمه، فكل ما فيه جلب مصلحة أو تحقيق منفعة للإنسان، جاءت مقاصد القرآن بالدلالة عليه، وكل ما فيه مضرة أو مفسدة على الإنسان، جاءت مقاصد القرآن بالتحذير منه، أو تحريمه، وهذا ما أوضحه الإمام العز بن عبد السلام⁴⁹. رحمه الله. حيث قال: "ومعظم مقاصد القرآن الأمر باكتساب المصالح وأسبابها، والزجر عن اكتساب المفاسد وأسبابها"⁵⁰.

لقد حوى القرآن الكريم مقاصد عظيمة من هذه القضية المؤثرة على الإنسان وعلى حياته.

أولاً: الآثار النفسية والاجتماعية للمخدرات في ضوء مقاصد القرآن الكريم

إنَّ حَكَمَ القرآن ومقاصده لا تكاد تخفى في كل ناحية من نواحي التشريع، ابتداءً من إثبات الحكم نفسه، والتدرج في تقريره وتطبيقه، ومراعاة مصالح العباد في ذلك، وانتهاءً بالأضرار الناتجة عن ذلك الشيء المحرم، والمفاسد الناتجة عن تناوله وتعاطيه، والقبائح والكراهات التي يراها الناس جلية وراء مرتكبي ما حرمه نص القرآن الكريم.

وبالنظر والتأمل نرى عظمة تلك الآثار الكارثية لتعاطي المخدرات، والمفاسد التي تلحق بمتعاطيها، والكراهات والمضرات التي تصيب مدمن المسكرات، وهنا تبرز مقاصد القرآن الكريم

⁴⁹ عز الدين بن عبد السلام، من أبرز كتبه: قواعد الأحكام في مصالح الأنام، والفوائد في اختصار المقاصد، والمصالح والمفاسد، والشجرة.

⁵⁰ أبو محمد عز الدين عبد العزيز ابن عبد السلام، قواعد الأحكام في مصالح الأنام، تحقيق: محمود بن التلاميذ الشنقيطي (بيروت: دار المعارف، الطبعة الأولى، د.ت)، ج 1، ص 7.

وتتضح بأن كل ما حرمه الله تعالى فيه الخير والمنفعة والصحة والقوة للإنسان، وبالمقابل فيه دفع الضرر عنه، ورفع الحرج عنه وتكريمه وتشريفه، وجعله كائناً شريفاً يقوم بواجب الاستخلاف على أتم الوجوه وأكمل الأحوال، وهنا نتناول الآثار الكارثية للمخدرات، وعلى قاعدة إبراز المقاصد القرآنية وإيضاحها من وراء تلك الآثار السلبية.

إنَّ ما تلحقه المخدرات من آثار على الفرد وعلى المجتمع لا يكاد يخفى على العيان، تلك الآثار التي تجعل الفرد في مغبة المعصية، وفي أدران الضعف والذلة والهوان، وتجعل المجتمعات مجتمعات شهوانية ضالة، تهدم أكثر مما تبني وتفسد أكثر مما تصلح، وسوف نبدأ بذكر الآثار النفسية، ثم الآثار الاجتماعية.

1- الآثار النفسية للمخدرات في ضوء المقاصد القرآنية

لقد أثبت الطب أضراراً جسيمة للمسكرات ومشتقاتها على الفرد وعلى صحته⁵¹، وأثبت تأثير ذلك على جميع أعضاء الإنسان العاملة في جسمه⁵²، وبالعكس ذلك الأثر على نفسية المدمن⁵³، ولما كان المقصد من تحريم الخمر هو دفع المفسدة والضرر عن الفرد كما قال تعالى: ﴿رَجَسٌ مِّنْ عَمَلٍ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: 90]، وصونه عن الحيوانية والبهائية: ﴿حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: 43]، وتحقيق المصلحة والنفع له، ورفع الحرج وتسليط الشيطان عليه: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقَعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ [المائدة: 91]، ويريد القرآن تنزيه الإنسان وتشريفه وتجنبيه طرق الهلاك والخسران: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: 195]، فقد كان القرآن

⁵¹ للاطلاع على تلك الأضرار انظر: مبحث أضرار الخمر على العقل ص 82 من هذا البحث.

⁵² وقد أفرد الدكتور علي البار في كتابه **الخمر بين الطب والفقه** تأثير الخمر على الجهاز العصبي، والمضمي، والدوري، والغدد، وفيه مباحث نفيسة، وهو مرجع للاستزادة.

⁵³ ومعنى الإدمان هو أن يتعود شخص على عقار معين بحيث تتعود خلايا جسمه على هذا العقار، (انظر: محمد علي البار، **الخمر بين الطب والفقه**، مرجع سابق، ص 87).

واضحاً في تحقيق هذه المقاصد وتطبيقها، حفاظاً على جنس الإنسان من أن يدمر عاطفياً وروحياً ونفسياً.

ولو تأملنا في ما قاله علماء الطب في تأثير الخمر ومشتقاتها ازداد لدينا الأمر وضوحاً وبدت لنا الصورة مكتملة:

"فأمراض الشخصية تزداد بتعاطي وإدمان الخمر والمخدرات، وتكثر مع تعاطيه الانحرافات العقلية والسلوكية والفكرية (Psychopaths)⁵⁴، وتأثر الخمر ومشتقاتها على دم الإنسان⁵⁵ مما يلوث دورته الدموية، ويكون ذلك مصدر قلق وضيق، وتأثر الخمر على مخ الإنسان.

يقول عماد فضلي أستاذ الأمراض العصبية والنفسية بكلية الطب جامعة عين شمس: "إن جميع المركبات المستخلصة من الأفيون لها أثر مباشر على أماكن معينة في الجهاز العصبي تسمى المستقبلات موجودة على جدران الخلية العصبية..."⁵⁶، وتؤثر المسكرات ومشتقاته على الحالة النفسية من خلال "الإحساس بالنشوة والانبساط وميل إلى الضحك لأبسط الأسباب؛ لأنه يؤثر على الجهاز العصبي فيعطي تأثيراً منعشاً"⁵⁷. ومما تشير إليه الدراسات كذلك إصابة وظائف الإدراك بخلل جوهري يبقى مشوهاً إياها مدد طويلة قد تمتد إلى أسابيع أو شهور وربما لسنوات نتيجة للتعاطي المزمن⁵⁸.

"ويرى بعض الباحثين أن الاختلالات النفسية قد تبقى عند المدمنين حتى بعد انقطاعهم عن الإدمان مدد متفاوتة"⁵⁹، ولقد كان رأي منظمة الصحة العالمية واضحاً في بيان التأثير النفسي

⁵⁴ المرجع السابق، ص 91 بتصرف.

⁵⁵ انظر: علي احمد عبد العال الطهطاوي، معالم الخيرات بشرح أضرار المخدرات (بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 1423هـ / 2002م)، ص 22-23.

⁵⁶ المرجع السابق، ص 23-24.

⁵⁷ سلوى علي سليم، الإسلام والمخدرات (القاهرة: مكتبة وهبة، الطبعة الأولى، 1409هـ / 1989م) ص 41.

⁵⁸ مصطفى سويف، المخدرات والمجتمع، (الكويت: عالم المعرفة، 1416هـ / 1996م) ص 119 بتصرف يسير.

⁵⁹ المرجع السابق، ص 120 بتصرف.

لمشتقات الخمر في أن لها أضراراً حادة وأخرى مزمنة على صحة الإنسان⁶⁰، والمجال الذي ذكره الطب⁶¹ وعلماء النفس كبير، وكل ما قالوه يؤكد ويدل على عظمة مقاصد الشارع الحكيم في أمره باجتناّب الخمر ومن اشتق منها حفاظاً على كينونة الإنسان، ومراعاة للمصالح، وتحذيراً من الأخطار التي قد تحدث به.

2-آثار المخدرات على المجتمع في ضوء المقاصد القرآنية

لقد دعا القرآن إلى وحدة المجتمع، فقال تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران:103]، وذم التفرق والتشردم والاختلاف فقال: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران:105]، والمقصد من وراء ذلك حفظ ببيعة المجتمع من التشتت والتفكك، واعتبار القوة فإن وحدة المجتمع تعني قوته، وإن الفرقة تعني الضياع والانحزامية، والخمر شأنها أن تفكك المجتمع بما لها من الآثار السيئة، وتفقد المجتمع مصادر القوة بما تعمل في المجتمع من أضرار تتمثل في الجريمة والضياع والانحلال، وبما سنورد من آثار تتضح مقاصد القرآن في تحريم هذا المسكر ومشتقاته، "فالخمر تثير عرامة اللحم، وتهيج النزوات فتثير العداوة والبغضاء بين الناس؛ فيضعف صفهم ويشتت شملهم"⁶².

لقد كانت الخمر من أكبر عوامل تفكك المجتمع الجاهلي، إذ كان الزنا والدعارة من العادات المصحوبة بتعاطي الخمر، وخفة الوازع، وبهذا كان من الطبيعي أن تصبح الخمر شيئاً لا غنى له في حياة مجتمع جاهلي⁶³، وفي وقتنا المعاصر تكاد الأحوال أن تكون متشابهة، فأكبر المجتمعات تفككاً هي المجتمعات المستبعدة للخمر.

⁶⁰ المرجع السابق، ص 123 وفيها رأي منظمة الصحة العالمية بنصه، ولم أورد خشيّة الإطالة.

⁶¹ united states، book editor، Laura k. Egendorf، 1973، ص 1973

⁶² ماجد أبو رحية، الأشربة وأحكامها، مرجع سابق، ص 98.

⁶³ انظر: مالك بدري، حكمة الإسلام في تحريم الخمر، مرجع سابق، ص 29.

والمخدرات سبب لارتكاب الجرائم الاجتماعية كالزنا والقتل؛ وذلك لأنها تفقد الإنسان قواه العقلية، فلا يدري ماذا يفعل من هنا أطلق عليها أم الخبائث⁶⁴، وقد سوى بعضهم بين الخمر والزنا⁶⁵، وللخمر والمخدرات أثر سيئ على مقومات الأمة، فالأمة لا تقوى إلا بشبابها ورجالها، والخمر شأنها أن تعطل مصادر هذه القوة بعملها الخبيث وتسلبها السيئ على عقول الناس وأهوائهم، فيتعطل النمو في الأمة، وتنتشر عوامل الخذلان والخنوع والذلة، ولذا فإن الدول الكبرى تفتنت لهذا الأمر، وسعت، ولا تزال تسعى أن تمنع تناول الخمر أو حتى تحد منها، وكان آخرها ما قام به الرئيس الروسي بإصدار قيود صارمة بحق متعاطي الخمر ووصف إدمان الخمر بأنه كارثة قومية تقوض الصحة العامة وتعوق الإقتصاد، ومثل ذلك في العراق، والبحرين، وغيرها من الدول⁶⁶.

يقول سيد قطب: " في السويد - وهي أرقى أو من أرقى أمم الجاهلية الحديثة - كانت كل عائلة في النصف الأول من القرن الماضي تعد الخمر الخاصة بها. وكان متوسط ما يستهلكه الفرد، حوالي عشرين لترًا. وأحست الحكومة خطورة هذه الحال، وما ينشره من إدمان؛ فأتجهت إلى سياسة احتكار الخمر، وتحديد الاستهلاك الفردي، ومنع شرب الخمر في المحال العامة، ولكنها عادت فخففت هذه القيود منذ أعوام قليلة! فأبيح شرب الخمر في المطاعم بشرط تناول الطعام. ثم أبيحت الخمر في عدد محدود من المحال العامة، حتى منتصف الليل فقط! وبعد ذلك يباح شرب النبيذ والبيرة فحسب! وإدمان الخمر عند المراهقين يتضاعف"⁶⁷.

⁶⁴ وفي ذلك إشارة إلى الحديث الذي رواه الدارقطني في سننه برقم 4889 عن الوليد بن عبدة قال: سمعت عبد الله بن عمرو بن العاص يقول: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- « الخمر أم الخبائث ومن شربها لم يقبل الله منه صلاة أربعين يوما فإن مات وهي في بطنه مات ميتة جاهلية ». واللفظ لأبي عمر القاضى، (انظر: الدارقطني، سنن الدارقطني، مرجع سابق، كتاب الأشربة وغيرها، حديث رقم: 1، ج4، ص247).

⁶⁵ ومن جملة من ذهب إلى ذلك محمد وصفي في كتابه: القرآن والطب، انظر: أضرار المخدرات، مرجع سابق، ص47-48.

⁶⁶ المصدر: العربية نت للأخبار، تاريخ الخبر: يوم الجمعة 22-8-2014م.

<http://www.alarabiya.net>

⁶⁷ سيد قطب، في ظلال القرآن، مرجع سابق، ج2، ص132.

ولقد حاولت أمريكا فعل ذلك بل حاولت منعه نهائياً يقول سيد قطب: "أما في أمريكا، فقد حاولت الحكومة الأمريكية مرة القضاء على هذه الظاهرة فسنت قانوناً في سنة 1919 سمي قانون الجفاف من باب التهكم عليه، لأنه يمنع الري بالخمير! وقد ظل هذا القانون قائماً مدة أربعة عشر عاماً، حتى اضطرت الحكومة إلى إلغائه في سنة 1933. وكانت قد استخدمت جميع وسائل النشر والإذاعة والسينما والمحاضرات للدعاية ضد الخمر"⁶⁸.

ومن الآثار السيئة للمخدرات ما يحدث في المجتمعات من حوادث في الطرقات، وقد أثبتت العديد من الدراسات أن المسكرات هي المسؤولة بدرجة كبيرة عن معظم حوادث الطرق⁶⁹، وبالجملة ومما سبق فالخمير ومشتقاتها تسبب آثاراً كبيرة على المجتمع ووحدته بدءاً من بث روح العداوة والكراهة، وانتهاءً بالتحلل وانتشار الفاحشة والجريمة بين أوساط المجتمع الأمر الذي يؤدي إلى انتشار المفساد وطغيان الضرر، ويتضح جلياً روعة البيان القرآني في ذكر ذلك: ﴿فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة:90]، ويظهر سعة المقصد القرآني في الحفاظ على بناء المجتمع، وتحريم كل ما يمس وحدته وتماسكه، فسبحان الله العظيم!.

لقد بات الإدمان خطراً يهدد السلم الاجتماعي، ولذا فإن الدول تسعى للتخفيف من وطأته، "وبدأ العلماء في المعهد الوطني لمعالجة الإفراط في المخدرات بالولايات المتحدة (تدعمه الحكومة بميزانية تزيد عن 5 ملايين دولار سنوياً) مشروعاً طموحاً لعلاج الإدمان والقضاء عليه، وقام علماء المعهد بالتعاون مع علماء في المراكز الطبية والجامعات الأخرى ببرمجة أكثر من 60 مركباً مختلفاً لعلاج إدمان الكوكايين فقط.

كما قاموا بتخطيط ميكانيكا المخ للمدمنين عن طريق استعمال تقنية التصوير المتقدمة. ويقول "فرانك فوكسي" مدير قسم بحوث وتطوير العلاج في هذا المعهد:

⁶⁸ المرجع السابق، ج2، ص132.

⁶⁹ للإطلاع على بعض هذه الحقائق، انظر: مصطفى سويف، المخدرات والمجتمع، مرجع سابق، ص170-176.

إنَّ "الإدمان سيظل دائماً معنا.. لكن هذه العقاقير الجديدة هي فرصتنا الحقيقية الأولى لتقليله"⁷⁰. ومما ورد في بيان الآثار الاجتماعية لتعاطي الخمر ما ورد في تقرير لهيئة الصحة العالمية عام 1980م جاء فيه أن 50% من جرائم الإغتصاب تمت بتأثير الخمر، وأن 86% من جميع جرائم القتل ارتكبت تحت تأثير الخمر⁷¹. وهكذا تظهر عظمة مقاصد القرآن من الحفاظ على المجتمع بتحريم الخمر ومشتقاته.

وبهذا نكون قد توصلنا إلى نهاية هذا البحث والذي أوضح أضرار المخدرات على العقل، وحجم الآثار الكارثية التي تحدثها على الفرد وصحته، وعلى المجتمع وبنيته، وعلى الدول وخططها التنموية، ومدى ظهور عظمة مقاصد القرآن في هذه القضية.

⁷⁰ انظر: موقع الإسلام أون لاين نت، كيمياء المخ.. آفاق جديدة لعلاج الإدمان، تاريخ تصفح البحث: 2014/8/12م.

http://www.islamonline.net/servlet/Satellite?c=ArticleA_C&pagename=Zone-Arabic-HealthScience/HSALayout&cid=1176271761638

71 شحات حسيب الفيومي، منهج القرآن في تهذيب الغريزة الجنسية وتحريم الخمر والمخدرات (بيروت: دار الخير، الطبعة الأولى، 1414هـ/1994م)، ص196.

الخاصة والنتائج

1. تبرز مقاصد القرآن من تحريم المخدرات في الآتي: مقصد الحفاظ على الجنس البشري، مقصد الحفاظ على العقل البشري، ومقصد الحفاظ على أجهزة الجسم المختلفة، ومقصد الحفاظ على البناء الاجتماعي والعمراني، ومقصد الحفاظ على المال، ومقصد الحفاظ على النفس، ومقصد الحفاظ على الصحة النفسية، ومقصد بيان منهج القرآن في العادات والمعاملات.
2. تنبع أهمية العقل في القرآن الكريم من خلال الاهتمام به من نواحٍ متعددة منها الأمر بإعماله في الجوانب المختلفة كالتدبر والتفكير والتأمل، ومن خلال تحريم ما يغويه ويعطله عن دوره المناط به بتحريم الخمر وما يشتق منها فالعقل الإنساني هو أداة الفهم والإدراك والنظر والتلقي والموازنة، وهو الموجه للإنسان ودوافعه وغرائزه المختلفة، والعقل هو الذي يميز بين الخير الصادق من الكاذب، وهو أداة التطور الحضاري.
3. إن المنهج القرآني منهجٌ يدعو إلى حفظ العقل لدوره الريادي في المعرفة والبناء العلمي، مع تسليمه بالغيوب التي نصَّ عليها القرآن والسنة الصحيحة، ودعوته إلى المعرفة المطلقة، والمعرفة بوجود الله تعالى، والمعرفة بما في الكون من مخلوقات، وموجودات وذلك من خلال الأمر بالعلم والتعلم وفق الضوابط العملية القرآنية.
4. إن حجم الآثار الكارثية لتعاطي الخمر ومشتقاته المتمثلة في انتشار أمراض اجتماعية فتّاقة في المجتمع الإنساني كالتبذير في الأموال، والأضرار الصحية والنفسية والاجتماعية، يقودنا إلى القول بأن حكمة القرآن ومقاصده من التحريم واضحة وضوح الشمس في رابعة النهار، وأن قاعدة المصالح والمفاسد تبدو واضحة جلية عند إسقاطها على قضية تحريم الخمر مما يؤكد لنا حرص المنهج القرآن على تحقيق السعادة والفلاح للإنسان من وراء ذلك.